من نجوم الإسلام
(٦)

جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه

ذو الجناحين

تأليف

عبد الله الطنطاوي

الدار الشامية
بيروت

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


جعفر بن أبي طالب
ذو الجناحين


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثَنا الفتى صادق أمين قال:

عدت من المدرسة وأنا مرهق الأعصاب، فقد كان الدرس الأخير شديد الوقع على نفسي.. كان أستاذ التاريخ يحدِّثنا عن الشهادة والشهداء، ويضرب لنا الأمثال من أصحاب الرسول القائد ﷺ، وكان فيما قال:

ـ إن ثمانين في المئة من أصحاب رسول الله ﷺ ماتوا شهداء، وإن أكثر من ستين في المئة من قادة الرسول القائد كانوا شهداء، وإن كثيراً من أبناء بيت النبوة قضَوْا شهداء.

وكان ممن ذكره من آل الرسول وقادته: جعفر الطيار ابن أبي طالب، ابن عم الرسول الكريم ﷺ.

وقد أسهب في ذكر جعفر الطيار إسهاباً رائعاً، جعلني أحنّ إلى لقائه في حلم من أحلامي الجميلة التي تتراءى لي في ساعة الأصيل، بعد أدائي صلاة العصر.

وهكذا كان.. فلم ألبث لحظات في سريري، حتى تراءى لي رجل ناضج، مكتمل الرجولة، فيه شباب وجمال وملاحة، أبيض البشرة، في شيء من حمرة قرمزية تشوب بياضها فتزيده جمالاً

إلى جمال، تزيّن وجهه لحية لطيفة، وقد لاث على رأسه عمامة كالتاج.

تقدّم نحوي، وقد كستْ محيّاه ابتسامة آسرة شدّتني إليه، وحفزتني لسؤاله:

ـ من أنت يا سيِّدي؟ فأنا أعرفك ولا أعرفك..

فتوقف عن المسير، وسيلٌ من البسمات العِذاب يطفح بها وجهه الصبوح، وقال:

ـ أولاً.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فرددت التحية بأحسن منها وأنا كالمأخوذ:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أيها السيِّد الهمام.

فامتدّت يده لتصافحني، فمددت يدي مصافحاً، فأحسست دفئاً ممزوجاً بحنان أبوي، ثم قال، وابتسامته لا تفارق شفتيه:

ـ أنا جعفر بن أبـي طالب.

فقاطعته:

ـ على رسلك يا سيِّدي، حتى أستدعي أختي صادقة، لأنها تعرف عنك الشيء الكثير.

ولم أكد أنهي كلماتي هذه، إلاَّ وصادقة مقبلة نحونا في خفّة وسرور، فصحت:

ـ أسرعي يا صادقة، فضيفنا اليوم هو سيِّدي جعفر الطيار.

ثم التفتُّ إليه وقلت:

ــ هذه أختي صادقة.

فسأل:

ــ وأنت؟

ــ أنا صادق.. صادق أمين.. من حفدتك يا سيِّدي، ومن محبّيك... نحن من القرن الخامس عشر الهجري، ومن بلاد الشام التي تشرفَّتْ بجسدك الطاهر، وبدمائك الزكية التي روَّتْ تُرْبَتَها الطاهرة.

وقالت صادقة:

ــ نحبّ، يا جدّي الشاب الوسيم، أن تحدّثنا عن حياتك.. عن كل شيء ذي بال في حياتك يا سيِّدي.. وكلُّ حياتك بتفصيلاتها وجزئياتها مهمةٌ يا جدّي.

فقال مداعباً:

ــ ونحن وقوف؟

ــ عفواً يا سيِّدي.. تفضّلْ واجلسْ على هذا الكرسيّ المريح.

وبعد أن جلس القائد الشهيد على الكرسيّ، ولملمَ أطرافَ عباءته العسلية، ووضعها على ركبتيه، قال:

ــ اسمي جعفر بن أبـي طالب. واسم أبـي هو: عبد مَناف، وكُنْيَتُه: أبو طالب. وطالب هو أخي الأكبر، كان طالب أكبرنا سنّاً، وكان عليٌّ أصغرنا سنّاً. وكنيتي: أبو عبد الله.

ــ هل كان لك ولد اسمه عبد الله؟

ــ نعم.. وله أخوان شقيقان، هما: عون ومحمد.. رزقني الله الكريم بهم من زوجتي أسماء بنت عُمَيْس ونحن في دار هجرتنا الأولى في الحبشة.

فتقدَّمتْ منه أختي صادقة، وقالت في مرح وسعادة:

ـ على مهلك يا جدّي الشاب الجميل.. لا نريد أن نغادر مكة إلاَّ بعد أن نستوفي الحديث عن كلّ ما له صلة بها.. فهل من كلام جديد حول إخوتك؟

قال المجاهد الشهيد:

ـ قلت لكما: طالب هو أكبر إخوتي، ويليه أخي عقيل، وترتيبي الثالث بين إخوتي، ويأتي بعدي أخي عليّ، وكلّ واحد منا يكبر شقيقه بعشر سنين.

ـ وأمُّك يا سيِّدي؟

ـ أمي فاطمة بنت أسد، وهي أول هاشمية تزوّجها هاشمي. وقد أسلمتْ وهاجرتْ إلى المدينة المنورة، وتُوفّيتْ في زمن النبيّ ﷺ. وكان النبيُّ شديد الإكرام لها، وعندما تُوُفِّيتْ حزن عليها، ونزل في قبرها.. عليه أفضل الصلاة والسلام.

ـ صلَّى الله عليه وسلَّم.

ـ متى أسلمتَ يا سيِّدي؟

ـ أسلمتُ بعد إسلام شقيقي عليّ بقليل..

ابتسم جعفر حتى ضاء وجهه، وأضاء الغرفة، ثم قال:

ـ من الذكريات الحبيبة إلى نفسي، أني ذهبت بصحبة والدي أبي طالب لزيارة النبي الكريم ﷺ، فرأينا النبيَّ ﷺ يصلي، وأخي عليٌّ يصلّي معه، وقد وقف على يمينه، فقال لي أبي: صِلْ جناح ابن عمِّك، وصلِّ على يساره. ففعلتُ.

فعلّقت أختي صادقة:

ـ ما أروعَ أبا طالب!!.

فعقَّب جعفرٌ رضي الله عنه:

ـ لو أنه أسلم.

وقلتُ:

ـ إذن.. أنت من السابقين الأوّلين إلى الإسلام يا سيِّدي؟

ـ أجل.. أسلمتُ قبل أن يدخل النبيُّ دار الأرقم رحمه الله، ليدعو فيها إلى الإسلام.

وقالت صادقة:

ـ كم أنا مشتاقة إلى أن تحدّثني، يا جدّي العزيز، حديثاً مفصَّلاً عن هجرتك وإخوانك إلى الحبشة!.

قال جعفر رضي الله عنه:

ـ لمّا رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابَهُ من البلاء على أيدي المشركين من قريش، وهو معافى من ذلك، لمكانه من الله عزّ وجلّ، ومن عمّه أبي طالب، قال لهم:

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنَّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».

وتابع جعفر رضي الله عنه يقول:

ـ وكان في الحبشة ملك صالح عادل يقال له النجاشي. فخرجنا مهاجرين، وقَدِمْنا أرضَ الحبشة، فجاوَرْنا بها خيرَ جار.. أمِنّا على ديننا، وعبدنا الله، لا نؤذىٰ، ولا نسمع ما نكرهه.. وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة أول هجرة في الإسلام.

سألتْ صادقة:

ــ هل هاجرتَ إلى الحبشة مرة أو مرتين يا سيِّدي؟

ــ بل مرة واحدة.. هاجرتُ في المرة الثانية.

ــ هل هاجرتَ وحدَك يا سيِّدي، وتركت أهلك في مكة المكرمة؟

ــ بل صحبتُ معي زوجتي أسماء بنت عُمَيْس، وولدت لي هناك أبنائي: عبد الله وعوناً ومحمداً، كما ذكرت لكم قبل قليل.

قالت صادقة:

ــ معنى هذا: أنك أقمت في الحبشة مدة من الزمن؟

ــ أربعة عشر عاماً.. أجل يا ابنتي.. أربعة عشر عاماً بقيتُ في الحبشة، بعيداً عن الأهل والصحب والوطن!.

قالت صادقة في دهشة:

ــ أربعة عشر عاماً؟ إنها مدَّةٌ مديدة.. من يصبر على فراق الوطن ومن فيه، وما فيه، كلَّ هذه المدة؟

أجاب جعفر رضي الله عنه:

ــ الذي يقرأ حديث رسول الله ﷺ:

«مَنْ فرَّ بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبراً من أرض، استوجبتْ له الجنَّةُ، وكان رفيقَ أبيه إبراهيمَ خليلِ الله، ونبيِّه محمدٍ ﷺ».

ــ صلَّى الله عليه وسلَّم.

ــ من يقرأ هذا الحديث الشريف، يعلم أنَّ وطن المسلم عقيدتُه يا أولادي. وقد صبرنا على فراق الأهل والوطن، ببركة الهجرة،

وبركة الدعوة إلى الله تعالى..

ـ هل كنتم تدعون إلى الإسلام هناك يا جدّي؟

ـ طبعاً يا بنتي.. كنا ندعو إلى الله بحرّيّة وأمان. وقد استجاب لنا بعض الأحباش، أسلموا وحسن إسلامهم ولله الحمد.

ـ إذن.. أنتم لم تهاجروا خوفاً من العذاب؟

ـ أجل يا بنيّ.. قضت حكمة الرسول ﷺ ورأفته ورحمته أن يأمرنا بالخروج أو بالهجرة إلى الحبشة، لأسباب، عرفْنا بعضها، كأن يخلّص أتباعه المسلمين ممّا قد يصيبهم من أذى...

ـ ولكننا نلاحظ يا سيِّدي أنّ أكثر الذين هاجروا، أو بعضهم، على الأقل، لم يكونوا من المستضعفين ولا من الطبقات الدنيا.. كنتَ أنت في قافلة المهاجرين.. وأبوك هو الذي يحمي رسول الله، وكان فيكم الزبير بن العوّام، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة المخزومي. وكان فيكم مصعب بن عمير، وعثمان بن عفان الأموي.. وكانت معكم رملة بنت أبي سفيان، زعيم مكة، وكانت معكم رقية بنت النبيّ ﷺ وزوجة عثمان بن عفان.

لاحظت سيِّدي جعفراً يصغي إليّ في اهتمام، وكأنه كان يتحفز للكلام، فسكتُّ، فقال:

ـ أنت لم تدعني أكمل حديثي عن بعض ما فهمْنا وعَرَفْنا من أسباب الهجرة إلى الحبشة.. فهناك الفرار من التعذيب، وهناك الفرار إلى الله بديننا، لنعبده دونما خوف أو تعرُّض لفتنة، وهناك الدعوة إلى الله، ندعو من نشاء من الأحباش، وهناك التفتيش عن أرض تكون

المنطلق للدعوة، بعد أن سدَّتْ قريشٌ كلَّ المنافذ والسبل في وجه النبـيّ الكريم ﷺ، وفي وجوه المسلمين.

ـ كم كان عدد المهاجرين إلى الحبشة يا جدّي؟

ـ في الهجرة الأولى، كان المهاجرون اثني عشر رجلاً وأربع نساء، وفي الهجرة الثانية، كنا ثلاثة وثمانين مهاجراً وتسع عشرة امرأة، ما عدا الأطفال.

ـ وكيف هاجرتم يا جدّي؟

ـ شاء الله عزّ وجلّ أن ييسّر لنا الهجرة، فجاءت سفينتان تجاريتان حملتانا إلى الحبشة بأجر زهيد.

سألت جعفراً رضي الله عنه عن تاريخ هجرتهم، فأجاب:

ـ كانت الهجرة الأولى في شهر رجب، سنة خمس من البعثة النبوية، وكانت الهجرة الثانية بعد ذلك ببضعة أشهر.

ـ وكيف هاجرتم؟ أعني.. هل ترككم مشركو قريش تهاجرون هكذا، دون أن يمسوكم بأذى؟

فأسند جعفر، رضي الله عنه، ظهره إلى الكرسيّ، ثم قال:

ـ كنا نخرج من مكة متسلّلين في الخفاء، لأنّ قريشاً كانت يقظة هذه المرة.. فقد شقَّ عليها أن يجد المسلمون مكاناً آمناً في الحبشة، ولذلك، قررت أن تحبط أيَّ هجرة جديدة، ولكننا كنّا أسرع منها، وعندما علمتْ بهجرتنا، أرسلتْ فرسانها خلفنا، ولكنّ الله سلّم، ويسَّر لنا السفر، قبل أن يصلوا إلينا.

ـ ثم ماذا يا سيِّدي؟

ـ ثم هاجرْنا، ووصلْنا إلى الحبشة بخير ولله الحمد.

قالت صادقة:

ـ أنت، يا جدّي العزيز، كنتَ أمير المهاجرين إلى الحبشة، فهل كلّفك رسول الله ﷺ بشيء هناك؟

ـ أجلْ.. حمَّلني رسالة إلى النجاشي.

ـ هل تتكرم بإطلاعنا على فحوى الرسالة؟

ـ حبّاً وكرامة.. بل سأقرؤها عليكم، لأني أحفظها عن ظهر قلب.

فسألتْ صادقة:

ـ هل كانت الرسالة شفهيّة يا جدّي؟

ـ بل كانت مكتوبة، وعليها خاتم النبي ﷺ.

ـ كيف كان خاتم النبي يا جدّي؟

أجاب الصحابيُّ الجليل جعفر:

ـ محمد رسول الله.. في ثلاثة أسطر. في الأعلى: الله، وتحت لفظ الجلالة: رسول الله، ثم تحته: محمد.. هكذا:

الله

رسول

محمد

فهتفتُ:

ـ الله أكبر.. ما هذا الأدب الرفيع مع الله؟ يضع اسم الله في السطر الأعلى، واسم محمد في السطر الثالث!!.

قالت صادقة:

ـ هذا ليس مستغرباً من سيِّد الخلق محمد ﷺ.

ثم التفتت إلى القائد الشهيد جعفر، وقالت له:

ـ ما زلت أنتظر سماع الرسالة يا جدّي.

فقال جعفر رضي الله عنه وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ «بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله.

إلى النجاشي الأصحم، ملك الحبشة.

سِلْمٌ أنت.

فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاَّ هو، الملك، القُدُّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيّبة الحصينة، فحملتْ بعيسى، فخلقه الله من روحه ونَفْخِه، كما خلق آدمَ بيده ونَفْخِه.

وإني أدعوك إلى الله وحدَه لا شريك له، والموالاة له على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله.

وقد بعثتُ إليك ابن عمي جعفراً، ونفراً معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقْرِهم، ودعِ التجبُّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلّغتُ ونصحتُ، فاقبلوا نصحي. والسلام على من اتبع الهدى».

فهتفتُ:

ــ الله أكبر.. إن الرسول القائد يخاطب النجاشيَّ بغير اللغة التي خاطب بها سائر من دعاهم إلى الإسلام من الملوك... إنه يخاطبه وكأنّه واحد من جنوده أو أصدقائه، ممن له دالّة عليهم.

فقال جعفر رضي الله عنه:

ــ هذا صحيح.. فالنجاشي كان رجلاً راشداً، مؤمناً بالله تعالى، وبأنبيائه، عليهم السلام، وكان نصرانياً، وعقيدته بسيِّدنا عيسى بن مريم، عليه السلام، عقيدة سليمة، فهو عنده عبد الله ورسوله عليه السلام. وكان النجاشي، ملكاً عاقلاً، ومؤمناً صالحاً، يستمع القول، ويأخذ ما حسن منه، ويطرح ما يراه سيّئاً أو غير مناسب.. والنبيُّ ﷺ كان يعرف هذا عن النجاشي، فكتب إليه ما كتب، وهو موقن بأنّ النجاشي سيقوده عقله وقلبه وإيمانه إلى تقبُّل دعوته إلى الإسلام، وإلى الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ... فالنجاشي، بحكم نصرانيته، لا بدّ أنه اطّلع، كما اطّلع علماء اليهود والنصارى، على نصوص تنصّ على أنّ زمان النبيّ العربيّ قد أظلّهم، كما تنص على اسمه وصفته.. ولا بدّ أنه كان ينتظر يوم مبعث الرسول الكريم ﷺ، بفارغ الصبر.

وسكت المجاهد الشهيد لحظات، التقط فيها أنفاسه، ثم تابع يقول:

ـ سلّمته الرسالة، فرحّب بها، وأكرمنا، وتركنا أحراراً في أرضه، ندعو إلى الله على بصيرة، وبالحكمة والموعظة الحسنة، ونحن آمنون على أنفسنا وأهلنا وأعراضنا، فقد جئنا ملكاً عاقلاً عادلاً لا يُظلم عنده أحد، ولا يسمح بوقوع الظلم على أحد في مملكته، لأنه ملك مؤمن بالله تعالى، ويعلم أن الله قد حرّم الظلم على نفسه، وحرّمه على سائر خلقه.

قلتُ:

ـ الله خير الحاكمين، وخير العادلين، وحاشاه أن يخلي أرضه من الرجال الصالحين، والنساء الصالحات، وإلاَّ، كانت الحياة جحيماً لا يطاق.. أليس كذلك يا سيّدي؟

ـ أجلْ يا صادق.. هو كذلك.. ولو خَلَتْ لخربتْ، كما يقولون.

ـ علمنا أن قريشاً أرسلت عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، ومعهما الهدايا إلى النجاشي وأساقفته، بُغية تسليمكم لهما، أو طردكم من الحبشة، فكيف أفشلتم مهمتهما؟

فهزّ جعفرٌ رأسه وهو يقول:

ـ مكروا بنا، فمكر الله بهم، والله خير الماكرين.

ـ كيف؟

فاعتدل جعفر في جلسته وقال:

ـ لقد شقَّ على قريش، وآلمها، أن ننجو من بطشها، ونهرب بديننا إلى أرض الحبشة، فأرسلت وفداً إلى النجاشي، كما ذكرتم، وكان عمرو بن العاص صديقاً للنجاشي، وقد حمل معه الهدايا للنجاشي ولأساقفته، وبطارقته، فبادر بإعطاء كل أسقف وكل بطريق هديته، وكلّمهم بشأننا، ليؤثّروا على النجاشي، فيتخذ قراراً ضدّنا.

ـ يا لطيف.. ما أدهاه!!.

ـ ثم ذهب عمرو، وزار النجاشي، وقدّم له هدية مما يحبّ.. ظناً منه أنَّ تلك الهدية الثمينة، وأن الحجج التي قدّموها للبطارقة مع الهدايا، سوف تؤثر على قرار النجاشي..

وبعد أن رأى عمرو وصاحبه ارتياح النجاشي لتلك الهدية، تقدَّم منه الداهية عمرو، وقال له:

ـ أيها الملك. إنه قد أوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم، من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردَّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

وقالت البطارقة للنجاشي:

ـ صدقا، أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليردّاهم إلى قومهم وبلادهم.

فعلّقت صادقة:

ــ إذن.. فعلت الهدايا فعلها في القوم.

فقال جعفر رضي الله عنه:

ــ ولكنّ النجاشي كان على غير ما يتمنى البطارقة ويرجو عمرو، فهو كما قلت لكما: ملك عاقل عادل، ولا يظلم أحداً من رعيته أو ممن لجأ إليه، ولا بدّ لمثل هذا الأمر من تمحيص وتدقيق.. لا بدّ من أن يسمع لهؤلاء المدَّعىٰ عليهم، ثم يحكم لهم أو عليهم. وحاول عمرو وصاحبه والبطارقة أن يثنوا عزيمة النجاشي عنه، ولكن.. هيهات لحاكم مثل النجاشي أن يستسلم لرأي جانح ظالم، حتى لو كان من صديقه عمرو، ومن بطارقته جميعاً..

نظر النجاشي إلى عمرو وصاحبه، ثم تأمّل بطارقته مَلِيَّاً، حتى كاد ينهار بعضهم، ويعترف بما كان منهم ومن عمرو، ثم قال في حزم وحسم:

ــ لا والله.. إذن لا أسلمهم إليهما.. ولا يُكاد قومٌ جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على مَنْ سواي، حتى أدعوهم، فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم. فإن كانوا كما يقولان، أسلمْتُهم إليهما، ورددْتُهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك، منعْتُهم منهما، وأحسنتُ جوارهم ما جاوروني.

قال جعفر رضي الله عنه:

ــ ولمّا همَّ عمرو بالكلام معترضاً، أشار له النجاشي إشارة المُغْضَب، فسكتَ عمرو على مضض، مخافة غضب النجاشي.

ثم أرسل إلينا النجاشي لنَمْثُلَ بين يديه.. خاف بعضنا من مكر

عمرو، ولكنّ الله ثبّت قلوب الخائفين.. اجتمعنا، وتداولنا في هذه القضيّة، ثم أجمعْنا أمرنا على قول ما نعرف من الحق والصدق، ولتكن النتائج ما تكون. كما اتفق المسلمون المهاجرون أن أكون أنا المتكلم.

وعندما مَثَلْنا أمام النجاشي، شاهدنا عَمْراً وصاحبه عنده، كما رأينا الأساقفة قد نشروا أمامهم صحفهم..

ابتدَرَنا النجاشي بهذا السؤال:

ـ ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا دين أحد من هذه المِلَل؟.

فتقدّمتُ نحوه، وقلت بصوتي الجهوري، وأنا أتمثّل عظمة الله:

ـ أيها الملك.. كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف، فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدّقناه، وآمنّا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدْنا اللَّهَ وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمْنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذَّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من

عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنّا نستحلُّ من الخبائث. فلمّا قهرونا، وظلمونا، وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيُّها الملك.

فهتفت صادقة:

ـ الله أكبر.. ما هذا الكلام الجامع المانع؟ لقد شرحتَ له، يا جدّي العزيز، مبادىء الإسلام وأخلاقه، في صورة لطيفة محبَّبة، كأنك كنت تطمع في إسلامه، أو كأنك تدعوه إلى الإسلام بأسلوب حكيم.

تنفس جعفر رضي الله عنه الصعداء، ثم تابع يقول:

ـ فقال لي النجاشي:

ـ هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟

فقلت له:

ـ نعم.

قال النجاشي:

ـ فاقرأه عليّ.

فقرأت له صدراً من سورة مريم:

بسم الله الرحمن الرحيم. كاف. ها. يا. عَيْنْ، صاد. (كهيعص). ذِكْرُ رحمة ربِّك عبدَه زكريا. إذ نادى ربَّه نداء خفيّاً. قال: ربِّ إني وَهَنَ العظمُ مني، واشتعل الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك ربِّ شقيّاً. وإني خفتُ الموالِيَ من ورائي، وكانت امرأتي عاقراً، فهبْ لي من لدنك وليّاً. يرثني ويرث من آل يعقوب، واجعله ربِّ رضيّاً.

يا زكريا إنّا نبشِّرُك بغلام اسمُه يحيـى، لم نجعل له من قبلُ سميّاً. قال: ربِّ أنَّى يكون لي غلام، وكانت امرأتي عاقراً، وقد بلغتُ من الكِبَرِ عتِيّاً. قال كذلك قال ربُّك هو عليَّ هيِّنٌ، وقد خلقتُك من قبلُ ولم تكُ شيئاً. قال: ربِّ اجعلْ لي آية، قال: آيتُك ألاّ تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويّاً. فخرج على قومه من المحراب، فأوحى إليهم أنْ سبّحوا بكرة وعشيّاً. يا يحيـى خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبيّاً. وحَناناً من لَدُنَّا وزكاةً، وكان تقيّاً وبرّاً بوالديه، ولم يكن جباراً عصيّاً. وسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيّاً... صدق الله العظيم.

فبكى النجاشي حتى اخضلَّتْ لحيتُه، وبكى أساقفتُه حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا كلام الله. ثم قال النجاشي:

ــ إنّ هذا والذي جاء به عيسى لَيَخْرُجُ من مِشْكاةٍ واحدة.

ثم التفت إلى عمرو وصاحبه، وقال آمراً لهما:

ــ انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يُكادون.

فخرج عمرو وصاحبه عبد الله يجرّان أذيال الخيبة، ولكنّ عمراً ما لبث أن فكّر بحيلة جديدة لإنجاح مهمّته، فوكز صاحبه في خاصرته، وقال:

ــ والله لآتينَّهم غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم.

فأجفل عبد الله بن أبـي ربيعة، وقال له:

ــ لا تفعل يا عمرو، فإنّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قالت صادقة:

ـ يبدو أنّ عبد الله بن أبي ربيعة كان أقلَّ سوءاً وشراسة من عمرو.

فقال جعفر رضي الله عنه:

ـ كان عبد الله أتقى من صاحبه عمرو رضي الله عنه ورحمه وعفا عنه، فقد كان هذا منه قبل أن يسلم، والإِسلام يجبُّ ما كان قبله.

ـ ثم ماذا يا سيّدي جعفر؟

ـ ثم سأل عبدُ الله صاحبه عمراً عمّا سيقول للنجاشي، مما توعّد به المسلمين، فأجاب عمرو:

ـ لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

وغدا عمرو على النجاشي من الغد، وقال له:

ـ أيها الملك. إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً. فأرسلْ إليهم، وسلْهم عما يقولون فيه.

فأرسل النجاشيُّ إلينا، وسألنا عما نقوله في المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ففزعْنا بادىء ذي بدء، ثم ربط الله على قلوبنا، فغشيتْها السكينة، واطمأنت إلى موعود الله، وأجمعْنا على أن نقول الصدق الذي تلقّيناه عن الله في المسيح عليه السلام.. تقدَّمْتُ من النجاشيِّ رابط الجأش، ثابت الجنان، وأجبتُه بقولي:

ـ نقول فيه الذي جاءنا به نبيُّنا ﷺ.

ـ وماذا يقول نبيُّكم عنه؟

ـ يقول: هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشيُّ عوداً من الأرض، ثم قال:

ـ والله، مـا عـدا عيسى بـنُ مـريـم مـا قلـتَ هـذا العـود. . أي ما جاوز مقدار هذا العود.

فهتفتُ فرحاً:

ـ الله أكبر. . ما أعظم هذا الملك، وما أعقله، وما أعدله!!.

فتابع جعفر الطيار كلامه:

ـ فتناخرت بطارقته، فقال لهم النجاشي: وإن نَخَرْتُم.

ثم التفت إلينا نحن المسلمين، وقال:

ـ اذهبوا، فأنتم آمنون بأرضي. من سبَّكم غرم. من سبَّكم غرم، من سبَّكم غرم. والله ما أحبُّ أنَّ لي جبلاً من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم.

فهتفْنا أنا وصادقة: الله أكبر. . الله أكبر. . بينما تابع جعفر رضي الله عنه يقول:

ـ ثم قال النجاشيُّ لحاشيته: ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله، ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

وخرج عمرو وصاحبه من عند النجاشي ذليلين مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار، مع خير جار.

قالت صادقة:

ـ وهكذا أفشلتم، يا جدّي العزيز، حيلة المشركين، وأبطلتم كيد عمرو وصاحبه، وانتصرتم على الشرك، وبلّغتم دعوة الإسلام ورسالته لملك الحبشة، ولبطارقته وأساقفته.

وانتابتني الغيرة، كالعادة، فقلت:

ـ لقد أدّيتَ واجبك يا سيِّدي في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، ورددْتَ كيد المشركين إلى نحورهم، وشرحتَ تعاليم الإسلام للملك ووزرائه وعلماء دينه، وخرجتَ وإخوانك منصورين بفضل الله.

فقال جعفر:

ـ الحمد لله.. ذلك الفضل من الله، هو وليُّنا، وهو مسدِّدُنا وناصرنا.

وقالت صادقة:

ـ نِعْمَ السفيرُ أنت يا ابن عمّ رسول الله ﷺ، ويا ليت سفراءنا يقتدون بك، ويكونون مثلك في صدقك وإخلاصك ووعيك وفصاحتك، وحسن تصرفك.. إذن.. لكان لنا ولقضايانا شأن آخر لدى الأجانب.

فقلت أنا، وأعوذ بالله من كلمة أنا:

ـ على مبدأ: الشيء بالشيء يذكر، يا سيِّدي، وما دامت أختي صادقة قد جاءت على ذكر قضايانا، وهي قضايا ساخنة، تسيل من أجلها الدماء في سائر المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية الثائرة، دفاعاً عن عروبة فلسطين وإسلامها، ومن أجل حماية المسجد الأقصى من التدمير والتهديم، وحماية القدس من التهويد.. من أجل هذا وذاك، نرجو أن تحدّثنا عن استشهادك أيها البطل، فإن حديث الجهاد والاستشهاد يطيب معكم أيها الأجداد العظام.

تحفّز ذو الجناحين للحديث، ولكنّ أختي صادقة، اعترضت قائلة:

ـ عفواً يا جدّي العزيز.. لديّ بعض الأسئلة، قبل الانتقال من

حديث هجرتك وسفارتك في اليمن.

فابتسم لها الصحابـيُّ الشهيد، كأنه يقول لها: هاتي ما عندك، فقالت:

ــ كأني سمعت أن النجاشي كان يتكلم اللغة العربية؟

ــ أجل يا ابنتي، لأنه عندما بيع وهو غلام، اشتراه رجل من بني ضَمْرة.

ــ كيف يا سيِّدي؟ ألم يكن ابن ملك؟

أجاب جعفر رضي الله عنه:

ــ بلى.. كان أبوه ملك الحبشة، ولم يكن له من البنين سوى النجاشي الأصحم، صاحبنا، وكان للملك أخ عنده اثنا عشر من البنين، فتآمر البطارقة مع أخي الملك، وقتلوا أبا النجاشي أصحم، ونصبوا أخاه ملكاً عليهم، أمَّا النجاشي الفتى، فأخذوه وباعوه، ثم اشتراه رجل من العرب من بني ضمرة، فعاش مع بني ضمرة، وتعلّم اللغة العربية. وكان النجاشي ذكياً عاقلاً لبيباً.

ــ وبعدها؟

ــ بعدها.. هلك الملك الجديد بصاعقة أحرقته، ففزعت البطارقة إلى أبنائه، فلم يجدوا أيّاً منهم يصلح للملك، فتشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن يسلّموا المُلْك إلى النجاشي، فذهبوا إليه، ورجوه أن يعود إليهم، ليكون ملكاً عليهم، فقبل. وهنا جاءهم سيِّدُه الذي اشتراه، وقال لهم:

ــ إمَّا أن تعطوني مالي الذي اشتريت به النجاشي، وإمَّا أن أكلّمه.

فقالوا له:

ــ كلّمْه.

فقال ذلك التاجر العربـي للنجاشي:

ــ أيها الملك. ابتعتُ غلاماً بست مئة درهم، ثم جاء أهل الغلام وأخذوه مني، ولم يردّوا عليّ مالي.

فقال لهم النجاشي:

ــ إمّـا أن تعطـوه دراهمـه، وإمّـا أن يضـع الغـلام يـده فـي يـد سيِّده، فليذهبنّ به حيث شاء.

فما كان من البطارقة إلاَّ أن يعطوه دراهمه. وكان هذا أول ما عُلم من عدل النجاشي ودينه.

نظرتْ إليّ صادقة، كأنها تقول لي: أرأيت؟ ثم قالت:

ــ متى عدت يا جدّي من الحبشة؟ وكيف؟ ولماذا؟

أجاب الصحابـيُّ الجليل:

ــ سنة سبع الهجرية. وذلك أنّ رسول الله ﷺ أرسل عمرو بن أميّة الضَّمْريّ إلى النجاشي، يدعوه إلى الإسلام.

فقاطعتْه صادقة بقولها:

ــ ألم يُسْلم النجاشي طوال هذه المدة يا سيِّدي؟

فأجابها الصحابـي الجليل:

ــ هناك ملكان. . النجاشي الذي حملْتُ إليه رسالةَ النبـيِّ ﷺ، وهذا قد أسلم على يدي، وبايعني عن رسول الله ﷺ، وكتب رسالة جوابية للنبـي الكريم.

ـ هل تذكرها لنا يا جدّي العزيز؟

ـ كما تحبّين يا صادقة. . كتب النجاشيُّ رضي الله عنه:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله.

من النجاشي الأصحم بن أبجر.

سلام عليك يا نبـيّ الله، ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلاَّ هو الذي هداني إلى الإسلام.

أما بعد. فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرتَ من عيسى. فوربِّ السماء والأرض، إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثُغْروقاً (أي شيئاً)، إنه كما قلتَ. وقد عرفنا ما بُعثتَ به إلينا، وقد قَرَيْنا ابن عمِّك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله ﷺ صادقاً مصدَّقاً، وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله ربِّ العالمين.

وقد بعثتُ إليك بابني أرها بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلاَّ نفسي، وإنْ شئتَ أن آتيَك فعلْتُ يا رسول الله، فإني أشهد أنَّ ما تقولُه حقّ. والسلام عليك يا رسول الله.

فهتفتْ صادقة:

ـ الله أكبر، ما أروع هذا الملك، وما أصدق إيمانه!.

وسألتُ الصحابـيّ الجليل:

ـ هل كان النجاشي الآخر الذي جاء بعد النجاشي الأصحم، غير مسلم؟ بمعنى آخر: ألم يسلم النجاشي الثاني، قبل أن يصير ملكاً على الحبشة؟

فأجاب جعفر رضي الله عنه:

ـ لا . . لم يكن مسلماً، بل كان نصرانياً، وكان اسمه أصحمة بن أبجر.

فأعدتُ السؤال بصيغة أخرى:

ـ لماذا لم يُسْلِمْ؟

ـ لأنه لم يقتنع بالإسلام مثلاً.

فقلتُ:

ـ والنجاشيُّ الأصحم؟ ماذا كان يعمل النجاشيُّ الأصحم يا سيّدي؟ لماذا لم يفرض الإسلام على خَلَفِه؟

قال جعفر رضي الله عنه بهدوء:

ـ لأنه لا يستطيع إكراه أحد على الدخول في الإسلام، لا من سوف يأتي بعده، ولا غيره من رعيته.

فتدخلت صادقة، ونظرت نحوي تسألني:

ـ هل نسيتَ يا أخي قول الله تعالى: لا إكراه في الدين؟

فقال جعفر في سرور:

ـ أحسنت يا حفيدتي. . لا إكراه في الدين. . ولهذا بقي من بقي من الأحباش على النصرانية، وأسلم معنا من أسلم.

سألتُ الصحابيَّ الجليل:

ـ هل أوصاكم الرسول القائد بدعوة الأحباش إلى الإسلام يا سيِّدي؟

ـ أجل. . وإلاَّ لما سافرنا، وتجشمنا آلام الغربة. . ويا لها من آلام.

وقالت صادقة:

ـ كنت أظنُّ أنَّ الرسول القائد أمركم بالهجرة إلى الحبشة، هرباً من المشركين، وتعذيبهم، وإيذائهم!.

فاعتدل الطيار في جلسته وقال:

ـ والله ما كنا لنهرب من بطش المشركين، وندع رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، يتعرضون لإيذاء قريش.. نحن هاجرنا فراراً بديننا، كما قلت لكم، وللضغط على قريش، فقد كان المهاجرون من سائر بطون قريش، وهذه الهجرة هي الأولى من نوعها بين العرب، ما كانوا يعرفونها، ولم يسمعوا بمثلها، ولذلك كانت وطأتها شديدة عليهم، وخاصة بعدما يتسامع العرب، بأن أتباع محمد ﷺ، قد فرُّوا بدينهم، تاركين أوطانهم وأموالهم وأهليهم.

وتنفس جعفر رضي الله عنه نفساً عميقاً ثم قال:

ـ تصوّروا أنّ عمر بن الخطاب، الذي كان من أشدِّ قريش على النبيّ وأصحابه، عندما رأى الصحابية أمَّ عبد الله بنت أبي خثمة ترتحل مهاجرة إلى الحبشة، قال لها، والحزن ظاهر على وجهه، وفي نبرات صوته:

ـ «إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟».

فقالت له بصلابة المؤمن الذي لا يخشى إلاَّ الله:

«نعمْ. والله لنَخْرُجَنَّ في أرض الله سبحانه.. آذَيْتُمونا، وقَهَرْتُمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً»

فقال لها عمر رضي الله عنه: «صحبكم الله».

وحكت أمُّ عبد الله لزوجها عامر بن ربيعة ما كان منها ومن عمر، ثم قالت: «رأيت له رقة وحزناً لم أكن أراهما فيه من قبل».

أرأيتم؟ لقد أثّرت هذه الهجرة برجل صلب كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى طمعت ليلى أمُّ عبد الله بإسلامه.

فعلقتْ صادقة بقولها:

ـ وأنا لا أستغرب، يا جدّي العظيم، أن تكون هجرتكم قد أثّرت بجدّي عمر رضي الله عنه، وكانت من جملة الأسباب التي دفعته إلى الإسلام.

وقال جعفر رضي الله عنه:

ـ وكان من أهداف هجرتنا، نشر الدعوة في الآفاق، لأنَّ النبـيّ الكريم بُعث رحمةً للعالمين، وليس لنا نحن العرب وحَسْبُ. ولعلَّنا في هجرتنا، نجد الأرض التي تحتضن الدعوة، والشعب الذي يؤمن بها ويتبناها. . وهذا ما فهمناه من جملة الوصايا التي أوصانا بها النبـيّ الكريم ﷺ، فقد أوصانا بتقوى الله تعالى، وحسن العبادة، والتمسك بالحق، وقول الصدق، وأن لا نخشى في الله لومة لائم، لنكون القدوة الصالحة لمن يرانا، ندعوهم إلى الله بطيّب أعمالنا وأقوالنا، ولا نكون منفّرين لهم بقول أو عمل.

قالت صادقة:

ـ نعود إلى رسالة الرسول القائد، التي بعثها مع عمرو بن أمية الضَّمْريّ.

هل تذكرها لنا يا جدّي العزيز؟

ـ اسمعيها يا ابنتي . . اسمعها يا صادق :

بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد النبـي .

إلى النجاشي عظيم الحبشة .

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

وأدعـوك بـدعـايـة الإِسـلام، فـإنـي رسـول الله، فـأسلـمْ تسلـمْ : (يا أهل الكتاب، تعالَوْا إلى كلمةٍ سَوَاءٍ بيننا وبينكم، ألاّ نعبدَ إلاَّ اللَّهَ، ولا نُشْرِكَ به شيئاً، ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تَوَلَّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون) فإنْ أبيتَ، فعليك إثمُ النصارى من قومك.

فسألت صادقة :

ـ وماذا كان جواب النجاشي أصحمة هذا يا سيّدي؟ هل أسلم؟ .

فأشرق وجه ذي الجناحين بابتسامة لطيفة، وقال :

ـ طبعاً أسلم . . فقد سمع من عمرو بن أمية الضمري الذي حمل إليه الرسالة، كلاماً جميلاً أقنعه بالإِسلام، وجعله من أتباع هذا الدين العظيم.

ـ هل تذكر شيئاً مما قاله له عمرو يا سيِّدي؟

أجاب ذو الجناحين :

ـ قال له عمرو الضمري، هذا البطل الفاتك الذي يعرفه سائر العرب :

«يا أصحمة. إنّ عليّ القول، وعليك الاستماع.

إنّك، كأنّك في الرِّقَّة علينا، منّا، وكأنّا في الثقة بك، منك؛ لأنّا لم نظنَّ بك خيراً قطُّ إلاَّ نِلْناه، ولم نَخَفْكَ على شيء إلاَّ أَمِنّاه. وقد أخذْنا الحجّةَ عليك مِنْ فيك: الإنجيلُ بيننا وبينك شاهدٌ لا يُرَدُّ، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك الموقع الحزُّ، وإصابةُ المِفْصَل، وإلاَّ، فأنت في هذا النبـيِّ الأمّيِّ كاليهود في عيسى بن مريم، وقد فرّق النبـيُّ ﷺ رسله في الناس، فَرَجاك لما لم يَرْجُهم، وأمِنَك على ما خافهم عليه، بخيرٍ سالف، وأجرٍ يُنْتَظَر».

ـ الله أكبر.. ما أقوى كلمات هذا السفير البطل!.

فتابع ذو الجناحين يقول:

ـ فما كان من النجاشيّ إلاَّ أن يعلن إسلامه ويقول:

«أشهد أنه النبـيُّ الأميُّ الذي ينتظره أهل الكتاب..».

وسكت أصحمة رضي الله عنه لحظة ثم قال:

«إنّ بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وإنّ العيان ليس أشفى من الخبر».

قلتُ:

ـ فهمتُ من كلام عمرو الضمري، كأنه واحد من أولئك الرسل الذين بعثهم الرسول القائد إلى ملوك عصره.

فأجاب جعفر رضي الله عنه:

ـ أجل يا بنيّ.. كان ابن الضمري واحداً من أولئك الرسل. وقد اختاره رسول الله ﷺ، وأرسل معه رسالتين، لا رسالةً واحدة،

إلى النجاشي أصحمة، لأنه أقدر من غيره على إفشال مهمة عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبـي ربيعة.

فسألت صادقة:

ــ وهل أرسلتْهما قريش إلى النجاشي مرة ثانية؟

ــ أجل يا ابنتي.. فقد ساء قريشاً أن يطمئنَّ بنا المقامُ في أرض الحبشة، نعبد الله، ونساعد إخواننا المهاجرين إلى المدينة المنورة بما نستطيع من المؤن، وندعو الأحباش إلى هذا الدين.. فأرسلتْ صاحبيها وسفيريها السابقين إلى الحبشة، لعلهما ينجحان هذه المرة، في إعادتنا إلى مكة، ليشفي المشركون غليلهم منا.

وعندما وصل وفد قريش إلى الحبشة، شاهد عمراً الضمري هناك، فأسرع ابن العاص إلى النجاشي، وكان قد قدَّم إليه وإلى بطارقته وأساقفته الهدايا الثمينة، أسرع إلى النجاشي، وقال له:

«أيها الملك. إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوٍّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا».

ــ فماذا كان جواب النجاشي يا سيِّدي السفير العظيم؟

ــ غضب النجاشي أصحمة، ومدَّ يده فضرب بها أنفه ضربة شديدة، فقال له عمرو بن العاص، وهو يرجف من شدّة الخوف:

«أيها الملك. والله لو ظَننتُ أنّك تكره هذا، ما سألتك إياه».

فقال النجاشي:

«أتسألني ــ يا عمرو ــ أن أعطيك رسولَ رجلٍ يأتيه النَّاموسُ

الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟».

فقال عمرو: أيها الملك. أكذاك هو؟

قال النجاشي: ويحك يا عمرو. أطعني واتَّبعه، فإنه والله لعلى الحقّ، وليظهرنَّ على مَنْ خالفَه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.

قال عمرو: أتبايعني له على الإسلام؟

قال النجاشي: نعم.

وبسط النجاشيُّ يده لعمرو بن العاص، فبايعه عمرو على الإسلام، ثم عاد إلى أصحابه، وقد تغيَّر رأيه عما كان عليه، ولكنه كتم إسلامه عليهم.

فهتفْنا معاً: الله أكبر.. الله أكبر!.

وانتظرت لحظة أفكّر، ثم قلت:

ـ لقد ازدحمت المشاعر عليّ يا سيّدي، بازدحام الأحداث التي ذكرتَ، وأريد أن أعود إليها واحدة واحدة إذا سمحت.

ولكن.. يبدو أن حال جدّنا جعفر رضي الله عنه كانت كحالي في شدّة الانفعال، فقد كان وجهه الصَّبوح يتمعَّر تارة ويشرق تارة، حتى بعد أن انتهى من حديثه، وبعد أن سألتُه.. ولكنه ما لبث أن عاد إلينا، وقال:

ـ كما تحب يا بنيّ..

قلت:

ـ إذن.. أسلم عمرو بن العاص رضي الله عنه، على يد النجاشي أصحمة، ثم كتم إسلامه، ولم يعلنه، إلاَّ عندما ذهب مع سيف الله خالد بن الوليد وصاحبه إلى رسول الله ﷺ، في هدنة الحديبية، أي في السنة الثامنة من الهجرة.. فمتى كان إسلامه على يد النجاشي؟

أجاب جعفر رضي الله عنه:

ـ في أواخر السنة السادسة من الهجرة.

وابتسم جعفر ثم قال:

ـ لقد ذكرت خالداً وصاحبه، فهل نسيتَ اسم صاحب خالد الذي ذهب معه إلى المدينة، وأسلم؟

فأسرعتْ صادقة تقول:

ـ اسمه عثمان بن طلحة يا جدّي العزيز.. أليس كذلك؟

ـ بلى.

وقلتُ:

ـ ذكرتَ يا سيِّدي أنّ عمراً الضمري حمل رسالتين، في الرسالة الأولى دعاه النبيُّ الكريم إلى الإسلام، كما دعا سائر الملوك الذين راسلهم، فما فحوى الرسالة الثانية؟ أو.. إذا سمحت.. اذكر لنا الرسالة الثانية، وجزاكم الله كل خير.

ـ كما تحبّ يا بنيّ..

في الرسالة الثانية، أمر رسولُ الله ﷺ، النجاشيَّ أصحمة أن

يزوّجه أمَّ حبيبة بنت أبـي سفيان، ويرسلها مع سائر العرب المسلمين المهاجرين عنده إلى المدينة المنوّرة.

فسألَتْ صادقة:

ـ هل كانت أمُّ حبيبة مهاجرة وحدَها إلى الحبشة؟

أجاب سيِّدي جعفر:

ـ لا يا صادقة.. هاجرتْ مع زوجها عبيد الله بن جحش، متحدّية أباها أبا سفيان الذي كان زعيم مكة، ومن أشدِّ المشركين على رسول الله وعلى المسلمين.. وفي الحبشة، كتب الله الشقاء على زوجها الذي ترك الإسلام وتنصَّرَ، ثم مات، وعلم رسول الله ﷺ بذلك، فكتب إلى النجاشيِّ أصحمة أن يخطبها له، فخطبها النجاشي، ثم زوّجها رسولَ الله ﷺ، ودفع لها مهراً عن النبـيِّ، وكان مهرها أربع مئة دينار، وبعث إلى النبـيّ بهدية، هي عبارة عن كسوة مؤلفة من قميص وسراويل وعمامة ورداء وخفّين.

وأرسل النجاشي إلى بعض بحّارته، وقال لهم:

«انظروا ما يحتاج فيه هؤلاء القوم من السفن».

فقالوا: يحتاجون إلى سفينتين.

فجهّزنا النجاشي بما نحتاج إليه.

وكلَّمَ بعضُ من أسلم من الأحباش، النجاشيَّ، وطلبوا منه أن يسمح لهم بالسفر معنا إلى المدينة المنورة، ليسلّموا على رسول الله ﷺ، فأذِنَ لهم، وسافروا معنا.. وأمّرني النجاشيُّ على المسلمين المسافرين

أو العائدين، أو المهاجرين من جديد إلى المدينة المنوّرة.

ـ متى كان هذا يا جدّي؟

ـ في أوائل السنة السابعة من الهجرة، وقد أرسل النجاشيُّ رسالتين جوابيتين إلى رسول الله ﷺ. وسوف أذكرهما لكما، قبل أن تسألاني عنهما.

فابتسمتُ وابتسمتْ أختي صادقة، فيما كان جعفر يقول:

الرسالة الأولى:

بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى محمد ﷺ.

من النجاشي أصحمة.

سلام عليك يا رسول الله من الله، ورحمته وبركاته.

أما بعد. فإني قد زوَّجْتُك امرأةً من قومك، وعلى دينك، وهي السيدة أمُّ حبيبة بنت أبـي سفيان، وأهديتك هدية جامعة: قميصاً وسراويل وعِطافاً (أي رداء) وخفّين ساذجين (أي غير منقوشين). والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

والرسالة الثانية:

بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى محمد ﷺ.

من النجاشي أصحمة.

سلام عليك يا رسول الله من الله، ورحمة الله وبركاته. لا إله إلاَّ الله الذي هداني للإسلام. أمّا بعد. فقد أرسلتُ إليك يا رسول الله مَنْ كان عندي من أصحابك المهاجرين من مكة إلى بلادي، وها أنا أرسلت إليك ابني أريحا في ستين رجلاً من أهل الحبشة، وإن شئتَ أن آتيك بنفسي فعلتُ، يا رسول الله، فإني أشهد أنَّ ما تقوله حقّ. والسلام عليك يا رسول الله، ورحمة الله وبركاته.

قلت لسيّدي جعفر:

ــ ووصلتم إلى المدينة المنوّرة بخير ولله الحمد، فمتى كان وصولكم يا سيِّدي؟

ــ في أوائل السنة السابعة من الهجرة النبوية إلى المدينة، وكان ذلك بُعَيْدَ غزوة خيبر. وعندما رآنا رسول الله ﷺ، فرح بقدومنا فرحاً شديداً، وقد عانقني الرسول الكريم، وقبَّلَ ما بين عينيّ، وقال: بأبي هو وأمّي:

«والله ما أدري بأيِّهما أنا أُسَرّ، أبقدوم جعفر، أم بفتح خيبر؟» وأنزلني بجانب المسجد، وقسَمَ لي من غنائم خيبر.

ــ هل قَسَم لك وحدك يا سيِّدي من بين سائر المهاجرين معك؟

ــ لا.. بل قسَمَ لي ولكلِّ من كان معي في السفينتين، ولم يقسم لأحدٍ لم يشهد فتح خيبر إلاَّ لنا.

فقالت صادقة:

ــ أنت تستأهل كلَّ خير يا جدّي العزيز، يا أبا المساكين!.

الحقّ أنني لم أسمع بأبـي المساكين قبل هذه اللحظة، فسألتُ أختي عن معناها، فأجابت بقولها:

ـ أنا أحفظ كلاماً لأبـي هريرة رضي الله عنه في وصف جدّي جعفر، قال: كان خير الناس للمساكين، جعفر بن أبـي طالب. وكان ينقلب بنا، فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إنْ كان ليُخْرِجُ إلينا العُكّة التي ليس فيها شيء، فنشقُّها فنلعق ما فيها (من السمن) فهو الجواد أبو الجواد بحقّ.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه:

«كان جعفر يحبّ المساكين، ويجلس إليهم، ويخدمهم ويخدمونه، فكان رسول الله ﷺ يكنيه: أبا المساكين».

وأحفظ كلاماً آخر لأبـي هريرة في وصفك يا جدّي العزيز، قال فيه: «ما احتذى النِّعال ولا انتعل، ولا ركب المطايا، ولا لبس الثياب من رجلٍ بعد رسول الله ﷺ، أفضل من جعفر بن أبـي طالب».

فقال جعفر:

ـ حَسْبُكِ يا ابنتي، فقد أفضتِ في كلام أخي أبـي هريرة رحمه الله.

فقالت صادقة:

ـ ولكنّي لم أذكر حديث الرسول القائد ﷺ فيك، عندما قال لك: «أشبهْتَ خَلْقي وخُلُقي». وكان الرسول القائد أجمل الرجال، وأكرم الكرماء، كان، في كرمه، كالريح المُرْسَلة، وكذلك أنت يا جدّي العزيز.

وعندما سكتتْ صادقة سألتُ جعفراً رضي الله عنه، عما إذا كان يحتفظ بذكرى مميّزة عن النجاشي رضي الله عنه، فأجاب:

بعد أن وصلْنا إلى الحبشة، وأسلم النجاشيُّ على يدي، وَلَدَتْ زوجتي ولداً أسميته عبد الله، وبعده ولدت زوجة النجاشي ولداً ذكراً، فسألني: ماذا سمّيتَ ابنك؟ قلت: عبد الله. فأسمى النجاشي ابنه عبد الله، ثم إنّ زوجتي أسماء كانت ترضع ابن النجاشي هذا، حتى فطمتْه بحليب ابني عبد الله. فكان لها بهذا الرضاع منزلة كبيرة عند الأحباش، فكان مَنْ أسلم بالحبشة، يأتي أسماء، مُكْرِماً لها، متبرّكاً بها.

وبعد لحظات من الصمت، رأيت أنّنا أثقلنا على هذا القائد الشهيد الذي لا يبخل على جليسه بشيء، وأردت أن أختم حديثي معه، فقلت له:

ـ معذرة يا سيِّدي جعفر، فقد أطلنا عليك، ولا بدّ للحديث من مسك ختام، وأعتقد أنَّ حديث الجهاد والاستشهاد في سبيل الله تعالى، هو مسك الختام في هذا اللقاء الرائع معك، وفي كل لقاء. ولهذا أرى أن تحدّثنا بإيجاز أو تفصيل، عن دورك في معركة مؤتة، التي فتحت لك أبواب الجنة على مصاريعها، تطير فيها بجناحين من ياقوت.

فاعتدل جعفر رضي الله عنه في جلسته، وقال:

ـ أمّا عن سبب هذه المعركة التي كانت الأولى من نوعها في تاريخ الجهاد الإسلامي، فهو أنّ رسول الله ﷺ كان أرسل عدداً من الرسل إلى عدد من الملوك والأمراء، وكان فيمن أرسله إلى أمير بُصرى الشام، الحارثُ بن عمير الأزديّ.. أرسله إلى أمير بصرى

بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، فلما نزل مؤتة ــ وهي قرية من قرى البلقاء (الأردن) في حدود الشام ــ على بُعد مرحلتين من بيت المقدس.

فسألتْ صادقة مقاطعةً:

ــ عفواً يا جدّي.. ما اسم أمير بصرى الشام؟

ــ اسمه الحارث بن أبي شَمِر الغسّاني.. إذن.. أرسل رسول الله ﷺ الحارثَ بن عمير الأزديّ إلى أمير بصرى من قِبَل الروم، فلمّا نزل الحارثُ مؤتة، عَرَضَ له شُرَحْبيلُ بنُ عمرو الغسّاني، فسأل عمّا إذا كان من رُسُل محمد ﷺ فأجابه الحارث: نعم. فما كان من الأحمق شرحبيل إلاَّ أن يقتل الحارث رحمه الله، ولم يُقتل لرسول الله رسولٌ سواه.. لقد أوثق شرحبيل وثاق الحارث، ثم ضرب عنقه.

فقلتُ معقِّباً:

ــ هذا لأنّ الرسل لا تُقتل عند أهل الأرض قاطبة، وخاصة عند العرب. ولكنّ شرحبيل هذا أحمق وأخرق.. نعمْ يا جدّي.. نعمْ..

ــ فاشتدَّ ذلك على الرسول ﷺ، وقرّر تشكيل جيش يتصدَّى لأولئك العرب المشركين، ولسادتهم الروم، فنَدَبَ الناسَ إلى ذلك الجيش، فأسرع المجاهدون يتطوعون فيه، حتى إذا اكتمل عددهم ثلاثة آلاف مجاهد، وعسكروا خارج المدينة المنورة، وخرج رسول الله والمسلمون لتوديع هذا الجيش، قال رسول الله ﷺ: «أمير الناس زيد بن حارثة، فإنْ قُتل، فجعفر بن أبي طالب، فإن قُتل،

فعبد الله بن رَواحة، فإن قُتل، فَلْيَرتضِ المسلمون بينهم رجلاً، فيجعلوه عليهم».

وعقد رسول الله ﷺ لواء أبيض، وسلّمه لزيد بن حارثة، وأوصانا رسول الله ﷺ أن نأتي إلى المكان الذي استشهد فيه الحارث، أي قرية مؤتة، وأن ندعو مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن استجابوا وأسلموا، فيا حبَّذا، وإلاَّ، استعنّا بالله عليهم، وقاتلناهم.

وعندما وصلْنا إلى (ثنيّة الوداع) ـ وكانت عادة العرب، توديع المسافرين منها ـ وقف رسول الله وودَّعنا. ولمَّا سِرْنا، صاح المسلمون المودّعون: «دفعَ اللَّهُ عنكم، وردَّكم صالحين غانمين».

سمع العدوّ بمسيرنا، فجمعوا لنا جيشاً عَرَمْرَماً قدّرناه بمئتي ألف مقاتل، مئة ألف من العرب، جمعهم الأحمق شرحبيل بن عمرو الغساني، ومئة ألف من الروم.

وصلْنا إلى (معان) وأقمنا فيها ليلتين، تحاوَرْنا فيما يجب علينا أن نفعل، فقد كان رأي بعض المجاهدين أن نكتب إلى رسول الله ﷺ، ونُعْلِمَه، وننتظر رأيه، فإن رأى القتال قاتلْنا، وإن رأى غير ذلك، نزلْنا عند رأيه. وكان هناك رأيٌ آخر يقول: ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكة، ويرى أن نعود إلى المدينة، فمن غير المعقول أن يتصدَّى ثلاثة آلاف لمئتي ألف. ولكنَّ الشاعر عبد الله بن رواحة كان له رأيٌ آخر، فوقف بالمجاهدين خطيباً، وحمَّسَهم، وشجَّعهم، وكان فيما قاله لهم: أيها المسلمون.. إنّ الذي تفرّون منه، لهو الذي خرجتم من أجله: الشهادة في سبيل الله.. فمال المجاهدون إلى رأيه، فسِرْنا إلى (مؤتة) حسْبَ تعليمات رسول الله ﷺ.

ولمَّا وصلْنا إلى مؤتة، وافانا المشركون إلى هناك، ولم نلبث أن أنشبْنا القتال.

فصاحت صادقة معترضة:

ـ كيف؟ كيف تقاتلون من يزيدون عليكم سبعين ضِعْفاً؟ كيف يا جدّي كيف؟

فأجابها جعفر في اطمئنان المؤمن إلى قَدَر الله تعالى، وفي شموخ المجاهد الذي باع نفسه لله، واشترى بها الجنة:

ـ لأنَّ المجاهدين، يا ابنتي، لم ينتصروا مرة واحدة بكثرة العَدَد والعُدَد في أيٍّ معركة من المعارك..

ـ نعمْ يا سيِّدي القائد.. تابعْ أرجوك.

فتابع جعفر رضي الله عنه، يقول:

ـ لقد قاتلْنا قتالاً، اللَّهُ وَحْدَه به عليم.. قاتلْنا، نحن الأمراءَ الثلاثةَ، على أرجلنا.. أخذ اللواءَ زيدُ بن حارثة، وتقدَّم به مستبسلاً، وقاتل معه المسلمون، حتى شاط في الرماح، رحمه الله رحمة واسعة، فقد كان بطلاً صنديداً..

فأخذت اللواء، وترجَّلْتُ عن فرسي الشقراء، وأقبلتُ نحو الروم والعرب المشركين أقاتلهم قتال مَنْ يرجو الشهادة، وكنت أرتجز:

يــا حبَّــذا الجنّــةُ واقتــرابُهــا   طيِّبــةً وبــارداً شــرابُهــا

والــرومُ رومٌ قــد دنــا عــذابُهــا   كــافــرةً، بعيــدةً أنســابُهــا

علــيَّ إذ لاقَيْتُهــا ضِــرابُهــا

قاتلتُ إلى أن لقيتُ ربّـي شهيداً، فقد تكاثر الأعداء عليّ، وكانت سيوفهم ورماحهم تتناوشني من كلِّ جانب. . لقد قطعوا يميني، فاستلمت اللواء بشمالي، فلما قُطعت شمالي، أخذته فاحتضنته بعضديّ وأسناني، حتى لا يسقط على الأرض، وقد شاهدت البطل الشاعر عبد الله بن رواحة يستلمه مني قبل أن يسقط، فحمدتُ الله، وأغمضت أجفاني على عينيّ سعيداً بنيلي الشهادة، وسعيداً مرة أخرى، بعدم سقوط لواء رسول الله ﷺ على الأرض، فقد حمله بطل من أبطال الإسلام، قمينٌ بأن يحميه من أن تعبث به سنابك خيول المشركين.

فقلتُ معلّقاً:

ــ وكان استشهادك، يا ذا الجناحين، يا ابن عمّ رسول الله، مَلْحَمةً فذَّةً، وبطولةً نادرة، وإقداماً لا يتكرر إلَّا قليلاً.

فقال جعفر رضي الله عنه:

ــ بل إنّ سائر المجاهدين كانوا يقاتلون كما أقاتل، حتى استطعنا أن نكشف بعض كتائب العدوّ. . ولكن. . ما عسى أن يفعل الواحد مع سبعين؟

وقالت صادقة:

ــ وقد قاتل البطل عبد الله بن رواحة كما قاتلتَ يا جدّي وكما قاتل البطل زيد بن حارثة، حتى استشهد، رضي الله عنه وأرضاه وأرضاكم جميعاً، ثم اختار المسلمون سيف الله خالد بن الوليد الذي تمكّن من سحب جيش المسلمين من ساحة القتال في مهارة وعبقرية جعلتنا الرسول القائد يصفه بسيف الله، وعاد بهم إلى المدينة المنورة.

وسكتتْ صادقة لحظات، كانت تسترق بعض النظرات إلى القائد الشهيد، ثم تابعت تقول:

ـ لقد تمكَّنَ منك عِلْجٌ من عُلوج الروم، فضربك ضربة، يا جدّي الشهيد، قطعتْك نصفين، وقد عدَّ جنودك الميامين أكثر من ثلاثين جرحاً في أحد نصفيك، وأكثر من تسعين ضربةً بسيف، وطعنةً برمح فيما بين منكبيك من جهة صدرك، وبهذا كنتَ المقدام، مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِر.

وقد حزن عليك الرسول القائد، يا جدّي العزيز، وصلَّى عليك، ودعا لك، ثم قال لأصحابه الكرام:

«استغفروا لأخيكم جعفر، فإنه شهيد، وقد دخل الجنة، وهو يطير فيها بجناحين من ياقوت حيث شاء من الجنّة».

واسمعْ، يا جدّي، حديث ابنك عبد الله بن جعفر، فقد قال:

«أنا أحفظ حين دخل رسول الله ﷺ على أمّي، فنعىٰ لها أبـي، فأنظرُ إليه يمسح على رأسي، وعيناه تُهْرَقان بالدموع، حتى تَقْطُرَ لحيتُه، ثم قال: «اللهمّ إنّ جعفراً قدم إلى أحسنِ الثواب، فاخلُفْه في ذرّيّته بأحسنِ ما خَلَفْتَ أحداً من عبادك في ذرّيّته» ثم قال: يا أسماء! ألا أسرُّكِ؟ قالت: بلى، بأبـي أنت وأمي.

قال: إنّ الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنة.

قالت: بأبـي أنت وأمي يا رسول الله. . فأعلمِ الناس ذلك.

فقام رسول الله ﷺ، وأخذ بيدي حتى رَقِيَ المنبر، وأجلسني

أمامه على الدرجة السفلى، والحزنُ يُعرَف عليه، فتكلم فقال: «إنّ المرء كثيرٌ بأخيه وابن عمّه. ألا إنّ جعفراً قد استشهد، وقد جعل الله له جناحين يطير بهما في الجنة».

ثم نزل رسول الله ﷺ، فدخل بيته، وأدخلني معه، وأمر بطعام فصُنع لأهلي، وأرسل إلى أخي، فتغدَّيْنا عنده والله غداءً طيّباً مباركاً.. عَمدَتْ سلمى ـ خادمُه ـ إلى شعيرٍ فطحنته، ثم نسَّفَتْه، فأنضجتْه وأَدَمَتْه بزيت، وجعلتْ عليه فُلْفُلاً، فتغدّيتُ أنا وأخي معه، فأقمنا ثلاثة أيام في بيته، ندور معه كلما صار في بيت إحدى نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا».

كنت أنظر إلى سيِّدي جعفر، وهو يصغي إلى حديث صادقة، ولمّا توقَّفت عن الكلام، طلب منها المزيد، فقالت:

ـ لمّا نعاك رسول الله ﷺ إلى زوجتك أسماء يا جدّي، قامت وصاحت وجمعت النساء، فدخلت عليها فاطمة بنت النبيّ رضي الله عنها وهي تبكي وتقول: واعماه!. فقال رسول الله ﷺ:

«على مثل جعفر فَلْتَبْكِ البواكي».

ولكنه، عليه السلام، قال لزوجتك أسماء يا جدّي العزيز:

«لا تقولي هُجْراً، ولا تضربي صدراً».

وأمهلَ أهلَكَ ثلاثة أيام، كان يولم لهم فيها، ثم جاءهم وقال لهم:

«لا تبكوا على أخي بعد اليوم».

ثم قال:

«ائتوني ببني أخي».

فجيء بهم كأنهم أفراخ، فقال: ادعوا إليّ الحلاق. فدُعي الحلاق، فحلقَ لهم رؤوسهم، ثم قال:

«اللهمّ اخلُفْ جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه».

قالها عليه السلام ثلاث مرات.

ولمّا جاءته أسماء، وذكرت له يُتْمَ أولادها قال لها:

«آلْعَيْلَةَ تخافين عليهم، وأنا وليُّهم في الدنيا والآخرة؟».

ولاحظتُ جعفراً رضي الله عنه يمسح دمعة ترقرقت في عينيه، فأشرتُ إلى صادقة، وعندما رأت ما رأيتُ سكتتْ، فقال جعفر رضي الله عنه:

ـ بأبـي أنت وأمي يا رسول ما أرحمك، وما أبرَّك!.

فهتفْنا جميعُنا:

ـ ﷺ.

• • •

سلسلة

من نجوم الإسلام

صدر منها:

١ ــ محمد بن مسلمة
٢ ــ عبد الله بن رواحة
٣ ــ سعد بن أبي وقاص
٤ ــ حمزة بن عبد المطلب
٥ ــ مصعب بن عمير
٦ ــ جعفر بن أبي طالب

تحت الطبع:

٧ ــ الشيخ عبد الرحمن الكواكبي
٨ ــ أبو عبيدة بن الجراح
٩ ــ عبد الرحمٰن بن عوف
١٠ ــ الزبير بن العوام
١١ ــ طلحة بن عبيد الله
١٢ ــ عمرو بن العاص
١٣ ــ الطفيل بن عمرو الدَّوْسيّ

* * *